الحرف والصناعات التقليدية بمنطقة الجلفة
(صناعة الأحذية والصناعة النسيجية)

ذيب بديرينة
جامعة زيان عاشور بالجلفة

تمهيد :

تعتبر الحرف و الصناعة التقليدية من مقومات الهوية الوطنية و المحافظة عليها تعني المحافظة على الانتماء و الوقوف في وجه الانسلاخ الفكري و الغزو الثقافي و تربية للنشء بالشعور و الاعتزاز بموروثه التاريخي، و ربط حبل التواصل بين أجيال الأجداد و الأبناء و لتنوع و ثراء الجزائر من حيث اختلاف مناخها و تضاريسها و حتى أصول شعوبها جعل طبيعة أهلها و طرق عيش حياتهم تختلف من مكان إلى آخر.

فالحرف والصناعات التقليدية هي الوسيلة الأولى والوحيدة للتعبير عن ثقافة مجتمع ما وأصالته بحيث تعتبر مصدرا للعيش لكثير من أفراد المجتمع، وهي تعبر عن مظاهر مختلفة للحياة من خلال الأعمال الفنية من رسومات وأشكال وزخارف التي نشاهدها في منتجات الحرف والصناعات التقليدية المستقاة من البيئة وطابعها الحضاري والتاريخي .

فمنطقة الجلفة تعتبر كباقي المناطق الأخرى التي تزخر بالعديد من الحرف والصناعات والتي تعبر عن أصالتها وثقافتها، بحيث أنها في غالب الأحيان مصدر عيش لكثير من الناس ما زالت تحتفظ بخصائصها وطرق صناعاتها وزخارفها الفنية في وقتنا الحاضر.

و يظهر ذلك جليا من خلال الحرف الجلدية وحتى الحرف النسيجية و تميزها من حيث الاشكال و مواد صناعته. فالحرف الجلدية، أو المصنوعات الجلدية عبارة عن صناعات بسيطة تعتمد كل الاعتماد على الثروة الحيوانية وتنصب على إنتاج السلع الاستهلاكية وهى منتشرة في معظم مناطق ولاية الجلفة .

فصناعة الجلود من أقدم الصناعات التي عرفها الإنسان بحكم توافر المواد الخام التي وهبه الله إياها، فمع احتياجه للملبس استفاد من جلود الحيوانات التي كان يتغذى على لحومها أو الحيوانات الميتة الأخرى في صنع أحذية تحميه من قسوة الطبيعة وأيضا استخدم الجلود في صناعة الملابس قبل أن يكتشف القطن والنسيج، ولم يستغني الإنسان عن الجلود بعد ذلك أيضا فاستخدمها في الكتابة الرسائل والأشياء الهامة. وفي عصرنا الحديث لم يستغن الإنسان عن صناعة الجلود بل توسع فيها؛ فصنع منها الأحذية الأنيقة والحقائب والأحزمة والكثير من الأشياء التي تدل على الأناقة والتي تتمتع المتانة في ذات الوقت.

وقبل استغلال الحرفي لهذه المادة الخام الجلود يجب عليه من تحضيرها تحضيرا جيدا من خلال تتبع مراحل مهمة بداية من سلخ جلد الحيوان الى غاية دباغته، وتجرى عملية سلخ الحيوان (**صورة رقم 01**)

صورة رقم : (01) : عملية سلخ الجلد

بعد ذبح الحيوان ومن ثم نشر الجلد وتعريضه لأشعة الشمس لكي تتفسخ وتتأكسد مواده البروتينية وتجف[1] (صورة رقم : 02).

صورة رقم : (02) : شكل الجلد بعد سلخه

وتأتي بعد عملية السلخ مرحلة أخرى وهي عملية الغسيل والترطيب يمرر العمال الجلود عبر آله إزالة اللحم المزودة بسكاكين حادة، لإزالة كل الدهون واللحوم على الجانب اللحمي من الجلد وتجري غالبا عملية إزالة اللحم على كثير من الجلود في أماكن تصنيع اللحوم ولا توجد حاجة لإجراء هذه العملية داخل المدابغ[2]، ويقوم الحرفي من نزع الشعر أو الصوف من الجلد المسلوخ والهدف من هذه العملية هو نزع الشعر وتنظيف النسيج الأدمي من الشحوم وغيرها، وأقدم طريقة مستعملة تتمثل في غمر الجلود الخام في الماء، مما يؤدي إلى تعفنها وتحللها بفعل الإنزيمات المفرزة من البكتيريا، بحيث تساعد في ارتخاء الشعر و إزالته بسهولة، ويحتفظ بالشعر لاستخدامه في صناعة الحبال والخيام ومنتجات أخرى[3]، وتتم معالجة الجلود عن طريق وضع الملح على الجانب اللحمي من الجلد أو بنقعها في محلول ملحي (ماء مملح) أو بتجفيفها جزئيا ثم تمليحها أو بتجفيفها فقط.

وهكذا تصبح الجلود بعد عمليات المعالجة ونزع اللحم ونزع الشعر جاهزة للدباغة، وهناك أربع طرق رئيسية لدباغة الجلود : وهي دباغة نباتية تتم في أحواض كبيرة مملوءة بمحاليل الدباغة والتي تحضر من الماء ومادة التانين، والتانين مادة مرة يمكن الحصول عليها من بعض النباتات مثل أشجار البلوط، وتستغرق عملية الدباغة النباتية عادة من شهر إلى ثلاثة شهور ولكن الجلود السميكة قد تتطلب دباغتها سنة كاملة[4]، وتتميز الجلود المدبوغة بطريقة الدباغة النباتية بصلابتها ومقاومتها العالية للماء، والجلود المعاملة بالدباغة النباتية يتم تشبيعها بمواد مثل الزيوت والدهون وهذا التشبيع يجعلها طاردة للماء وأكثر مقاومة للبلل[5].

وهناك الدباغة المعدنية والتي تتم عن طريق استخدام محلول دباغة من أملاح الكرومات (مركبات الكروم) وقبل الدباغة بالكروم تحفظ الجلود بنقعها في محلول من حمض الكبريتيك والملح وتكون الجلود المدبوغة بالكروم أكثر مقاومة للحرارة والخدش وأكثر مرونة وأسهل في التطرية وبوجه عام تستخدم الجلود المدبوغة في الكروم في صناعة الطبقة العلوية للأحذية والقفازات والمحافظ والأمتعة[6]

---

[1] / صباح اصطيفيان كجه جي، **الصناعة في تاريخ وادي الرافدين**، بغداد العراق، 2002، ص 69.

[2] / مرزوق بتة ، **الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراء في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، معهد الآثار، الجزائر، 2014، ص 139. .

[3] / شذى بشار حسين محمد الصوفي، **دباغة الجلود وصناعتها في بلاد الرافدين**، رسالة ماجستير في الآثار القديمة غير منشورة، جامعة الموصل بغداد، 2004، ص 39.

[4] / Rouzeau Beyries Sylvie : **Le travail du cuir de la préhistoire à nos jours**, Ed APPCA Antibes, Paris ,2002 , p 21- 23

[5] / صباح اصطيفيان كجه جي، **المرجع السابق**، ص 71.

[6] / شذى بشار حسين محمد الصوفي، **المرجع السابق**، ص 46.

وبعد مرحلة الدباغة تأتي مرحلة الصباغة حيث تجرى صباغة معظم الجلود بعد عملية الدباغة في أسطوانات كبيرة مشابهة لتلك المستخدمة في الدباغة، ويمكن صباغة الجلود باستخدام عدد من صبغات الأنيلين وصبغات الخشب الطبيعية والصبغات الحمضية، كما يمكن إجراء الصباغة باستخدام بعض مواد الدباغة، وتتم الصباغة بتقليب الجلد مع مخلوط من الماء الدافئ ومادة الصباغة، ويضاف عادة الزيت لزيادة نعومة الجلود[1]،

بعد مرحلتي الدباغة والصباغة للجلود يكون الجلد جاهز للتصنيع فيقوم الحرفي الجلفاوي بتشكيل الجلد على حسب المنتوج المراد صنعه فمثلا صناعة الأحذية التي تعتبر ضاربة منذ القدم في منطقة الجلفة، وذلك لتوفر المادة الأولية التي تتمثل في الثروة الحيوانية (غنم، ماعز، ابل، بقر..) وبالتالي توفر الكثير من أنواع الجلد التي بواسطتها تصنع منها الأحذية، أما بالنسبة لصناعة الأحذية فتمر بمراحل عدة بحيث يقوم الحرفي بتحضير المادة الأولية وهي الجلد ثم يقوم بتقطيع أو تفصيل الجلد إلى قطع، ثم يكرر العملية ليلصق هذه القطع مع بعضها بمادة لاصقة وهي الغراء الخاص بالجلد لتكون القطع مشكلة من طبقتين، ثم يقوم الحرفي بخياطة هذه القطع مع بعضها البعض، ويتم زخرفة الجلد قبل تركيبه في القالب بزخرفة متنوعة كالتضفير والحرق، ليقوم بعد ذلك في تحضير قاعدة الحذاء المكون من جلد البقر ويقوم بتثبيته بمسامير على قالب الحذاء وهذا القالب هو أداة خشبية على هيئة قدم انسان(**شكل رقم : 01**)، ثم يبدأ بتركيب القطع المخاطة في القالب ويبدأ بعملية تثبيت القطع بالقاعدة بالمسامير، وفي الأخير وضع شريط من الجلد على حافة الحذاء من الأسفل على طول الحذاء، وأغلب الجلود التي تستعمل في صناعة الحذاء هي من جلود الماعز والغنم، أما بالنسبة لقاعدة الحذاء (النعال) فتصنع من جلد البقر.

صورة رقم (03) : أنواع الأحذية الجلدية بمنطقة الجلفة

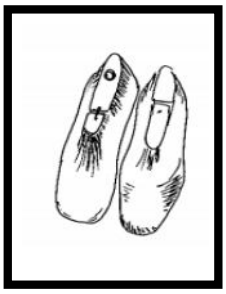

شكل رقم (01) : قوالب خشبية تستعمل في صناعة الأحذية

هذا بالنسبة للحرف الجلدية، أما بالنسبة للحرف النسيجية بمنطقة الجلفة فتنوعت وتعددت حيث تشتمل الصناعات النسيجية على جميع العمليات الهادفة إلى تحويل الألياف والشعيرات إلى خيوط لإنتاج سلع أو منتجات تستخدم في أغراض الحياة المختلفة، مثل أقمشة الملابس بأنواعها والأغطية والسجاد وغيرها .وقد تطورت هذه الصناعة فشملت الآلة والإنتاج، وظهرت إلى جانبها صناعة الحياكة والقماش غير المنسوج التي تختلف اختلافا كليا عن أنواع النسيج العادي المعروف.

ففي الوقت الذي تتنوع فيه المنتوجات الحرفية اليدوية بمنطقة الجلفة بين نسيج الزرابي بمختلف أحجامها والحائك والفليج (المركب الأساسي للخيمة) وكذا الأفرشة والألبسة التقليدية تبقى صناعة "القشابية" و" البرنوس" الوبري اللذان ذاع صيتهما وأصبحا علامة مميزة لصناعة تقليدية مرموقة محل اهتمام عدد كبير من

[1] Carayon (G) , **Travail artistique du cuir en Algérie** , Alger , S.D , p p 3 . 4

الحرفيين الذين تشبثوا بهذه الحرفة التي توارثوها أبا عن جد وأصبحت تعبر عن هويتهم وعمق تراثهم الحضاري الأصيل.

ساهم ثراء ولاية الجلفة من الثروة الحيوانية المكونة من الأغنام والإبل من أن يكتسب أهلها مهارات متميزة و خبرات عالية في تقنيات تحضير الصوف والوبر مما أهلها أيضا لأن تكون مصدرا وطنيا لهذه المواد الأولية التي يعتبر توفرها سبيلا حقيقيا لبقاء حرفة النسيج اليدوية تحافظ على مكانتها

وبسط نفوذها .

فالنسيج هو عبارة عن تقاطع خيوط طولية متجاورة تسمى بخيوط السداء مع خيوط أفقية تسمى بخيوط اللحمة، ويتطلب حدوث تقاطع خيوط السداء مع خيوط اللحمة تحضيرات أولية وأداة خاصة لإجراء عملية النسيج يطلق عليه اسم النول حيث يوجد نوعان من النول (الأفقي و الرأسي العمودي)، كما يطلق على المواد الأولية المستخدمة في صناعة المنسوج اسم خامات النسيج [1].

إن حرفة النسيج في منطقة الجلفة ضاربة في القدم بالقدر الذي عرفت فيه هذه المنطقة قدم التقلبات الحضارية، لذلك فإنه عند ذكر النسيج في منطقة الجلفة يتبادر لذهن الباحث ذلك المنتوج الذي تميزت به المنطقة عن غيرها من مناطق الوطن هذا إن لم نقل العالم بأسره .

لقد صارت الممارسات الحرفية من بين النشاطات الاقتصادية ذات الدخل المتجدد، وما يلاحظ في الجزائر أن العديد من العائلات اتخذت من الأنشطة الحرفية موردا لدخلها، وهو الشيء الملاحظ بشدة في منطقة الجلفة، في مجال حرفة النسيج بأنواعه وعلى وجه خاص نسيج البرنوس والقشابية، ففي مدينة مسعد وهي من كبريات المدن بالولاية أشارت إحصائيات ميدانية قامت بها مديرية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة أن 66 % من العائلات تمارس نشاط نسيج الصوف والوبر من بينها 83 % تعتمد على دخل منتجاتها الوبرية والصوفية في معيشتها، وهو الأمر الذي يعكسه حجم الإنتاج المقدر بأكثر من 30 ألف قطعة منسوجة يدويا خلال السنة من الوبر أو الصوف [2].

صورة رقم 04: المادة الأولية الوبر

لقد ساهمت عدة أسباب في بقاء انتشار حرفة النسيج بالشكل الذي تحدثنا عنه سابقا كما أنه توجد عدة ظروف تميزت بها المنطقة ساهمت بشكل كبير في محافظة أهاليها على النسيج، مما أدى بهذه الظروف في المحافظة أو البقاء والاستمرارية لمزاولة حرفة النسيج منها ما يتعلق بالطبيعة الإقليمية للمنطقة، ومنها ما يتعلق بارتباط حرفة النسيج بوجود حرف أو أنشطة اقتصادية أخرى.

تضم منطقة الجلفة كما سبق ذكره الكثير من الحرف والصناعات التقليدية تختلف باختلاف المناطق المترامية في أطراف المنطقة من بين أهم الحرف اليدوية صناعة النسيج، هذه الحرفة التي تعتبر لدى الكثير من الأسر الجلفاوية مصدر رزق، نظرا للكمية المعتبرة لمنتوج مادة الصوف كون المنطقة ذات طابع رعوي.

ومن بين المنتوجات النسيجية القشابية والبرنوس نظرا لأهميته في منطقة الجلفة والمشتهرة بهما على الصعيد الوطني وحتى الدولي، وللحصول على هذا المنتوجين يجب توفر المادة الأولية لهما وهو الوبر حيث يعتبر إنتاج

[1] / علي احمد الطايش، الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة (فن العصرين الأموي والعباسي)، مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 88.

[2] / مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، الجلفة، (د.ت)، ص 09.

الوبر ذو أهمية اقتصادية كبيرة لبعض المجتمعات وخاصة مجتمعات البدو وتشتهر منطقة الجزائر بكثرة الوبر حيث يتواجد بكثرة في الصحراء خاصة أدرار وجامعة والجلفة (مسعد).

ويمتاز الوبر كذلك بنفس ميزات صوف الأغنام من حيث أنه يقي الإبل من تبلل جلودها بماء المطر وكذلك في محافظته على درجة حرارة جسم الحيوان وخاصة الأيام التي تكون فيها البرودة قاسية، غير أن تناقص رؤوس الإبل بالمنطقة وتراجع تربية الإبل أدى إلى ندرة الوبر مما أسهم في ارتفاع أسعارها.

ويستعمل أيضا الوبر مع الصوف، بحيث يضاف شعر الوبر إلى الصوف وشعر الماعز لصناعة المنسوجات الخيمية بحثا عن المتانة والدفء (عدم النفاذية) ويستعمل كثيرا في صناعة الحبال.

ويتميز الوبر بنعومته وقوته في آن واحد وهو ما يضمن للمنسوجات متانة مذهلة خاصة عند استعماله في خيوط السدوة.

وقبل استعمال المادة الأولية (الوبر) في النسيج يجب تحضيره عبر مراحل : كزج الوبر من الإبل وتختلف جودة المادة الأولية حسب منطقة الجلد المنزوعة منه، كمنطقة السنام التي تكمن به جودة الوبر، وكذلك السن يلعب دورا مهما في نوعية المادة الأولية فمتوسط العمر الخاص بجودتها يتراوح بين ثماني إلى عشر سنوات بالنسبة للجمل.

هذا بالنسبة لاختيار ونزع المادة الأولية تأتي بعدها مرحلة الغسل والتنظيف بحيث تقوم الحرفيات بمنطقة الجلفة بغسل الوبر وتنظيفه من الشوائب والغبار وذلك بوضعه في الماء الساخن بالإضافة إلى بعض الملح، وبعد تجفيفه يكون جاهز لمرحلة تقدير كمية المادة الأولية اللازمة وهي أول الخطوات التي تسبق أي عمل يدوي في النسيج إذ يتوجب على الناسجات تقدير الكمية اللازمة للنسيج المراد نسجه، وتعمد الناسجات على طريقة تقليدية وعفوية في تقدير المادة الأولية ، وتكتسبن المهارات المتعلقة بتقدير المادة الأولية بواسطة الممارسة المتتالية، وهكذا يكون الوبر جاهز لعملية البشم أو التمشيط وهو فتح المادة الأولية وتنقيتها من العوالق التي لم يزلها الغسل، وتتم عملية البشم عن طريق البشم اليدوي أو البشم عن طريق آلة تسمى المشط، وبعد عملية المشط تأتي عملية التلفيف عن طريق آلة تسمى قرداش والتي نستخلص منها بعد التلفيف خيوط الصوف أو الوبر بما يسمى (الريط)، لتنتقل الحرفية الى مرحلة أخرى وتسمى بمرحلة الغزل تباشرن في غزله وتستعملن المغزل، وهي أداة تقوم ربات البيوت من خلال الحركة الدائرية بفتل الريط الذي يثبت على رأس المغزل وشده ليتحول بعد استدارته واستطالته إلى خيوط النسج التي تسميها ربات البيوت في المنطقة بـ: (الطعمة)

وبعد كل هذه المراحل تكون المادة الأولية جاهزة لعملية النسيج بحيث تستعمل الحرفية بمنطقة الجلفة آلات خاصة بالنسيج وهو المنسج أو النول العمودي أو النول الأفقي والذي تتم عن طريق مراحل كالسدوة والتي تعتبر المرحلة الأولى وتسمى هذه العملية كذلك بالتسدية، ويتم فيها إعداد المنسج بطريقة جماعية (ثلاثة نساء على الأقل) تجلس اثنتان مقابل الوتدين والأخرى تمرر لهما الخيط المسمى بالقيام بشكل أفقي ذهابا وإيابا بين الوتدين المثبتان جيدا في الأرض، بعد إتمام عملية التسدية تقتلع الأوتاد المذكورة برفق وتحمل الجملة

صورة رقم (05) : البرنوس والقشابية الوبري

لتوضع على المنسج، ويتم ذلك بعد ما تسميه النساء الناسجات بالطي والذي يتم خلاله لف خيوط السدوة على وتدين

خشبيين اللذان سيشكلان لاحقا قاعدة ورأس المنسج أو النول، وتبدأ الناسجات بعملية النسيج بواسطة آلات كالخلالة التي تقوم برص صفوف خيوط النسيج على بعضها البعض، وبنفس الطريقة يتم نسج القشابية والبرنوس الوبري أو الصوف.

وخلاصة القول نستنتج بأن الحرف والصناعات التقليدية بمنطقة الجلفة تعددت وتنوعت، بالنسبة للحرف الجلدية فهي لقيت مكانا في وسط الحرف والصناعات التقليدية بمنطقة الجلفة، فنظرا لطبيعة المنطقة الرعوي والتي تحتوي على عدد هائل من الحيوانات كالغنم والماعز والإبل فقد استغل أهل المنطقة من جلود الحيوانات وذلك بعد سلخها ودباغتها وصباغتها بطرق تقليدية وتحضيرها لصناعتها.

ومن بين الصناعات الجلدية نجد صناعة الأحذية التي تزال تمارس إلى اليوم بالرغم من وجود الآلات والمصانع المتخصصة في الأحذية وبقي سكان المنطقة يحافظون عليها .

بالإضافة إلى الصناعة الجلدية نجد الحرف النسيجية التي كانت سائدة بكثرة والتي كانت الاهتمام الأول وبالدرجة الأولى لسكان المنطقة، وذلك راجع لعدة أسباب منها أن المنطقة رعوية مما جعلها كثيرة الموارد الحيوانية والتي تمثلت في الغنم والماعز والإبل وكل هذه الحيوانات كانت مصدر عيش الكثير من البدو وحتى سكان الحضر لما لها من فوائد كالحليب والصوف وشعر الماعز والوبر، وهي تعتبر مواد أساسية وأولية لعملية النسيج، فالنسيج في منطقة الجلفة يعتبر الدخل الأساسي للكثير من العائلات الجلفاوية، وعندما يذكر النسيج في المنطقة يتبادر إلى ذهن كل شخص من الجزائر ذلك المنتوج الذي تميزت به المنطقة دون غيرها من مناطق الجزائر، وهو ذلك المنتوج المعروف بالبرنوس الوبري أو القشابية الوبرية، والتي اشتهرت به منطقة مسعد بالجلفة، فأهمية الحرف والصناعات النسيجية بمنطقة الجلفة لا تقل أهمية عن باقي الحرف والصناعات الأخرى، حيث أصبحت الحرفة النسيجية مورد دخل للكثير من الأسر الجلفاوية، والسبب في انتشار هذه الحرفة يعود إلى عدة ظروف وأسباب نذكر منها الظروف الإجتماعية التي من شأنها التكاتف في تحقيق الدخل، أما بالنسبة للأسباب الثقافية فيرجع إلى اعتبار المنتوج الوحيد التي مازالت المنطقة محافظة عليه وهو البرنوس الوبري أو القشابية الوبرية.

المراجع المعتمدة :

1. صباح اصطيفيان كجه جي، **الصناعة في تاريخ وادي الرافدين**، بغداد العراق، 2002 .
2. بتة مرزوق ، **الحرف والصناعات التقليدية بمدينة الحضنة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراء في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، معهد الآثار، الجزائر، 2014،
3. الطايش علي احمد ، **الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة (فن العصرين الأموي والعباسي)**، مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
4. الصوفي شذى بشار حسين محمد ، **دباغة الجلود وصناعتها في بلاد الرافدين**، رسالة ماجستير في الآثار القديمة غير منشورة، جامعة الموصل بغداد، 2004.

5. مديرية السياحة والصناعة التقليدية لولاية الجلفة، منوغرافيا، الجلفة، (د.ت) .

6. Rouzeau Beyries Sylvie : **Le travail du cuir de la préhistoire à nos jours** , Ed APPCA Antibes , Paris ,2002 ,

7. Carayon (G) , **Travail artistique du cuir en Algérie** , Alger , S.D ,